التنغيم ومصطلحاته في التراث العربي. علم التجويد أنموذجا

Intonation and its terminology in the Arab heritage. Tajweed science as a model

ط.د/عبد القادر مقناني[1*]، إشراف: أ.د/سعاد بسناسي[2]

مخبر اللهجات ومعالجة الكلام

[1] جامعة أحمد بن بلة وهران1 (الجزائر)، amegunane@gmail.com

[2] جامعة أحمد بن بلة وهران1 (الجزائر)، besnacisouad@yahoo.fr

تاريخ الاستلام: 2023-03-10 تاريخ القبول: 2023-05-26 تاريخ النشر:2023-06-08

ملخص البحث

لقد نالت ظاهرة التنغيم حظا وافرا من اهتمامات الباحثين اللغويين المحدثين، خاصة بعد الاهتمام البالغ الذي أولاه علماء الصوت بالجانب الوظيفي، حيث برزت إلى الوجود تلك الأبحاث التي تتعلق بمختلف الظواهر التطريزية، أو الفونولوجية، أو الصواتية، أو فوق–التركيبية، أو التشكيلية... ومهما اختلفت مسمياتها فإن دلالتها تبقى واحدة، تتمثل في تلك الأداءات أو الظواهر غير الخطية المصاحبة للكلام المنطوق، ولعل أهمها التنغيم، الذي لا يمكن أن تخلو منه لغة أو لهجة، بفضل إمكانية تمييزه بين المعاني المختلفة للبنى التركيبية، وبين أنماط الجمل والعبارات ولو بقيت مبانيها الإفرادية على حالها، دون أن تتغير. وتعتبر أبحاث علماء التجويد في تراثنا العربي من أنفس الأبحاث من حيث القيمة التي أضافتها إلى علم الصوت التشكيلي، رغم أن علم التجويد من العلوم المتأخرة نسبيا، ومن العلوم التي اعتمدت على غيرها في ظهورها، لكن تلك الدراسات خدمت علم الأصوات الفونولوجي فيما بعد خدمة جليلة، إذ أمدّته بمختلف المصطلحات التي اعتمدها الباحثون اللغويون من بعد، وحتى المحدثون

*المؤلف المرسل: ط.د/عبد القادر مقناني.

منهم. فما هو التنغيم؟ وكيف عرفه علماء التجويد؟ وما المصطلحات التي خصوه بها؟ وما مدى وعيهم بهذه الظاهرة التشكيلية؟

كلمات مفتاحية: التنغيم؛ التراث العربي؛ علم التجويد.

Abstract:

The intonation phenomenon has gained a great deal of interest from modern linguistic researchers, especially after the great attention paid by phonologists to the functional aspect, as those researches that relate to various embroidered, phonological, phonetic, supra-synthetic, or morphological phenomena emerged. Whatever their names are different, their significance remains the same, represented in those non-linear performances or phenomena accompanying the spoken speech, and perhaps the most important of them is intonation, which cannot be devoid of in a language or dialect, thanks to its ability to distinguish between the different meanings of the structural structures, and between the patterns of sentences and expressions, even if they remain. Its individual buildings remain unchanged. The research of intonation scholars in our Arab heritage is considered one of the most valuable researches in terms of the value it added to the science of plastic sound, although the science of intonation is one of the relatively late sciences, and one of the sciences that relied on others in its emergence, but those studies later served phonological science with a great service. As it provided him with various terms adopted by linguistic researchers from a distance, and even modernists among them. So what is toning? How did the scholars of intonation know it? And what are the terms that singled him out? How aware are they of this plastic phenomenon?

Keywords: Intonation ; Arab heritage ; Tajweed science .

1. مقدمة:

تعددت المفاهيم التي تشير إلى التنغيم، واختلفت التعاريف التي خصّه بها علماء الصوت، أو المختصون في حقول وميادين معرفية قريبة من علم الصوت اللغوي، لكنها أغلبها –إن لم نقل كلها– متقاربة في المعنى العام لهذه الظاهرة التطريزية، سواء من حيث اللغة، أو من حيث الاصطلاح.

2.تعريف التنغيم:

أ- لغة:

إن ما ورد في معاجم العربية فيما يخص التنغيم؛ موجود في الجذر (نغم)، ويدلّ على "الكلام الخفيّ"[1] و"حسن الصوت والقراءة"، في قول الجوهري: "النغم الكلام الخفي، تقول منه: نَغَم ينغَم، وينغِم، نَغْمًا. وسكت فلان فما نغم بحرف، وما تنغّم مثله، وفلان حسن النّغمة، إذا كان حسن الصوت في القراءة."[2] كما لم يخرج "ابن منظور" في "لسان العرب" عن هذا المعنى؛ إذ قال: "النغمة: جرس الكلمة، وحسن الصوت في القراءة وغيرها، والنّغم: الكلام الخفي، والنّغمة: الكلام الحسن، ومكث فلان فما نغم بحرف، وما تنغّم بمثله."[3] ومما يلاحظه القارئ لهذين التعريفين الأخيرين تفريق الجوهري وابن منظور بين النغم والنّغمة؛ حيث جعلا الأول للكلام الخفيّ، والثاني لحسن الصّوت وجماله، كما أضافا معنى السكوت.

ويبدو حسب "الخليل بن أحمد الفراهيدي" صاحب أول معاجم العربية أن استعمال مصطلح "النغم" لم يكن بعيدا عما ذكره اللاحقون، حيث يقول: "النّغمة: جرس الكلام، وحسن الصوت من القراءة ونحوها، وتقول ما نغم بكلمة"[4] أي: ما نطق بها كما ورد في التعريفات السالفة الذكر، والنغمة جرس الكلمة وحسن الصوت أثناء النطق، سواء كان ذلك في القراءة أو في غيرها، مثلما ذكر "الجوهري" في "صحاحه". بينما لم يستسغ اللغوي "مكي درار" ما ورد في "مقاييس اللغة" لصاحبه "ابن فارس"، في قوله : "النون والغين والميم، ليس إلا النغمة، جرس الكلام، وحسن الصوت بالقراءة وغيرها."[5] وذلك لأن "في هذا النص أداة حصر بالنفي (ليس إلا) والمحصور هو النغمة، ومعنى هذا أن هذه الصيغة موقوفة على هذا المعنى، في تشكيلتها الصوتية من مرجعيتها الفكرية. ولكن إذا تتبعنا هذه الصيغة في تقليباتها الاشتقاقية، ثم عرضناها على الأبواب المعجمية،

وجدنا غير ما قيل فيها هنا. وكنا اعتمدنا التقليب في غير هذه الصيغة*، وأعطانا نتائج طيبة، يطمئن إليها الباحث والدارس".[6] ولعل ما أورده "ابن فارس" اللغوي يقصد به المعنى المذكور بناءً على ترتيب الأصوات الوارد في بداية تعريفه (النون والغين والميم)؛ وإلا فعملية التقليبات الاشتقاقية تثبت عكس ذلك، مثلما أشار إليه الباحث الناقد "مكي درار".

ب– اصطلاحا:

يعتبر التنغيم من أهم المظاهر فوق–التركيبية التي تصاحب الكلام الملفوظ، وقد ترجمه الباحثون المحدثون عن مصطلح (intonation) من إحدى اللغتين الفرنسية أو الإنجليزية، كما أولوه العناية البالغة كلما تطرقوا إلى الظواهر التشكيلية في علم الصوت، وذلك لأنه (من الظواهر الصوتية التي تساعد في تحديد المعنى لأن تغير النغمة قد يتبعه تغير في الدلالة من سياق لغوي لآخر،)[7] بل قد جعله بعض الباحثين قمة الظواهر التشكيلية غير الخطية في الأحداث الكلامية.

وأول من عالج ظاهرة التنغيم عند العرب هو الباحث "إبراهيم أنيس"، وقد سمّاه "موسيقى الكلام"، واعتبره شيئا طبيعيّا تستوجب وجوده كل لغات العالم، ويشكل معها ثنائية متلازمة ومتكاملة، تبلّغ الغرض النفسي المقصود إلى المتلقي؛ لأن (اختلاف نغمات الكلام شيء طبيعي في اللغة لا بد أن تحتوي على موسيقى الكلام التي تتألف منها ألفاظها،)[8] إذ كل كلمة ينطقها المتكلم، يصاحبها أداء خاص. و لم يخرج الباحث "كمال بشر" عن التسمية السابقة ومعناها العام، إلا أنه مثلها بتشبيه يوضح أن (الكلام عند إلقائه تكسوه ألوان موسيقية لا تختلف عن الموسيقى، وتظهر موسيقى الكلام في صورة ارتفاعات وانخفاضات وتنوعات صوتية.)[9] مثل تنوعات الأنغام الموسيقية. والتنغيم هو قمة كل الظواهر الصوتية التي تكسو المنطوق حيث (تتخلل عناصره المكونة له، وتكسيه تلوينا موسيقيا معينا حسب مبناه ومعناه، وحسب مقاصده التعبيرية، ووفقا لسياق الحال أو المقام.)[10] ولا يمكن اعتبار ذلك أداءً ثانويا من المتكلم، لا يحمل أي تأثير على مستوى معنى الجملة أو مبناها.

ويشير الباحث "محمود السعران" إلى تعدد مسمياته، إذ يسميه البعض (تونيم من "tone" بمعنى "نغمة"... عندما يتخذ وسيلة للتمييز بين المعاني)[11] أو فونيم النغمة أو الفونيم النغمي أو ترجمات أخرى ظهرت في أعمال بعض الباحثين كالنبر الموسيقي والنغمة الصوتية.[12]

ويبدو الباحث "تمام حسان" من أسبق الباحثين اللغويين المحدثين الذين عرفوا التنغيم ب(ارتفاع الصوت وانخفاضه أثناء الكلام)[13] حيث صار مرجعا لكثير ممن عالجوا هذه الظاهرة الفونولوجية بعده، وقد علل ظاهرة ارتفاع صوت المتكلم وانخفاضه بأن (الكلام لا يجري على طبيعة صوتية واحدة)[14] بل هو يتراوح بين بروز مقاطع، وانخفاض مقاطع أخرى، لتحقيق غرض أو مقصد نفسي يريده المتكلم.

ويبدو تركيز الباحثين –في تعريفهم لظاهرة التنغيم– على وظيفته، بدل ماهيته، إذ عدّوه نوعا (من موسيقى الكلام، وبواسطته يتسنى للدارس أن يعرف كثيرا من خصائص الكلام كالتفريق بين الجملة المثبتة والاستفهامية، ولا سيما إذ لم توجد صيغ نحوية خاصة تقوم بهذا التفريق كتعبير التعجب و الاستفهام.)[15] وهذا التعريف يجعل من التنغيم محصورا في الوظيفة النحوية التركيبية فقط. ويضيف الباحث "فهمي حجازي" إلى ما سبق ذكره السبب الذي يؤدي إلى تغير النطق أثناء الكلام، إذ يعود –حسبه– بالدرجة الأولى إلى (توتر الوترين الصوتيين مما يؤدي إلى اختلاف الوقع السمعي. ومن هذا نجد كلمات كثيرة تتعدد طرق تنغيمها لتؤدي وظائف دلالية مختلفة)[16] فضلا عن ربطه لهذه الظاهرة التشكيلية بالسمع دون غيره، أي أنه يقتصر على التراكيب المسموعة دون المقروءة؛[17] لأن للتنغيم (أثرا كبيرا في نفوس السامعين، ومتابعتهم، وحسن إصغائهم، وإزالة اللبس عن معنى الجملة، وإدراك الفرق بين المعاني المتعددة، وفهم المراد، ولا يأتي ذلك إلا باتباع سنن أهل اللغة في المنطق، والاهتمام بالجانب التطبيقي، والتعوّد على مجاراة الفصحاء. فالمتكلم قد يهدف بحديثه، وتتابع نغمات كلامه العتاب، أو الاستحثاث، أو لفت النظر، أو الامتعاض إلى غير ذلك من المعاني التي لا يمكن إدراكها إلا بمعرفة التنغيم.)[18] وتتحقق تلك الوظائف بحسن توظيف

التنغيم، وفقا للمتعارف عليه في البيئة اللسانية (وقد يؤدي الانحراف عن النطق ... غالبا إلى اختلاف المعاني وتباين المقاصد. ناهيك عن عدم وضوح المعنى. فمعرفة طرق الأداء والنطق الصحيح، لا يقل في أهميته عن معرفة علم النحو.)[19] لهذا تبدو قيمة الأداء المصاحب للنطق، وأهميته في تبليغ المقاصد النفسية، وأثرها في فهم الرسائل الملفوظة على الوجه الصحيح.

ولا يقتنع الباحث "مكي درار" بنظرة الباحثين في ظاهرة التنغيم؛ لأنها شبه محصورة في جمال الأداء الصوتي، ولم يعثر عندهم على الكيفية التي يحدث بها (ذلك، ولماذا، و ماهي وسائله و إمكاناته، وتقنياته؟... مع أنه هو المطلوب.)[20] وكل ما وجده (لا يعدو وصفا وتوصيفا لصورة التنغيم باعتبارها مدركا سمعيا مؤثرا في المتلقي.)[21] ويبدي تحفظه من تعريف الباحث "تمام حسان" للتنغيم، الذي حصره في ارتفاع وانخفاض صوت المتكلم أثناء الكلام، وهو –حسبه– خلط بين ظاهرتي النبر والتنغيم ووظائفهما، ليرسم بعد التحقيق صورة خطية لفظية جعل فيها (تصور مسار الأداء، في خط أفقي مستقيم. فإذا انتفخ موضع ما، في الخط الأفقي، فذلك نبر، لأن النبر بروز صوتي... و إذا تسلط عليه نازل من فوق، فاهتز وارتكز، فذلك إيقاع... وكلاهما شدة وتصلب في التصويت، فإن أضيف إليهما شيء من المطاوعة والملاينة، فذلك تلحين، ثم تنتظم تلك المظاهر والظواهر الصوتية جميعها في تلوين يسمى التنغيم).[22] ثم دعا الباحث كما يتجلى في نصه هذا إلى تسهيل عملية القراءة والإلقاء عبر رموز وعلامات، تبرز مواطن الظواهر الفونولوجية في النص المدوّن، وهي الضمة للنبر، والكسرة للإيقاع. ليخلص في النهاية إلى تعريف التنغيم (بأنه عبارة عن شبكة من التلوينات الصوتية المتداخلة الخيوط، يسهل وصفها ويتعذر تحديد بدايات الخيوط ونهاياتها مفردة منعزلة عن بعضها)[23] البعض، ومؤكدا أن ما جاء به ليس جديدا على التراث العربي، بل كان معروفا من قبل، ويستشهد بما أورده "أبو نصر الفارابي" في كتابه "الموسيقى الكبير". والتقاطع الحاصل بين تعاريف علماء الصوت المحدثين والمعاصرين و تعاريف الباحثين الغربيين، سببه اعتماد لغوييننا على الترجمة، والنهل من الدرس اللساني الغربي، والاهتمام –المبالغ فيه أحيانا– على

نظرياته، والسعي إلى تطبيقها على اللسان العربي رغم الاختلاف بين النظامين اللغويين. كما لا ينكر أحد ما توصل إليه علماء التجويد من نتائج قيمة في مجال الصوت اللغوي، سواء في شقه العام، أو الجانب الوظيفي الفونولوجي، والتنغيم من أهم الظواهر التي عرفها أولئك الباحثون الذين خدموا علم الأصوات خدمة جليلة.

التنغيم عند علماء التجويد:

لا شك أن علماء التجويد الذين لمع نجمهم في البحث الصوتي، اعتمدوا على علماء اللغة في هذا الميدان البحثي؛ إذ قاموا (باستخلاص المادة الصوتية من مؤلفات النحويين واللغويين وعلماء القراءة، وصاغوا منها هذا العلم الجديد الذي اختاروا له اسم علم التجويد، وواصلوا أبحاثهم الصوتية مستندين إلى تلك المادة، وأضافوا إليها خلاصة جهدهم حتى بلغ التجويد منزلة عالية من التقدم في دراسة الأصوات اللغوية)[24] وهذا التراكم العلمي شكّل نقطة انطلاق مهمة نحو التميز و(لا يمكن أن نعده جزءا من تلك الجهود، وإنما جاء عملا شاملا للدرس الصوتي، أما علماء العربية فإنهم عالجوا الموضوع في إطار الدرس الصرفي وهو أمر تجاوزه علماء التجويد وذلك بالنظر إلى أصوات اللغة نظرة أشمل من ذلك.)[25] وقد كرّست هذه الجهود لخدمة القرآن الكريم، ودفع اللحن عنه، وتلاوته مثلما سُمع عن النبيّ صلى الله عليه وسلم. ويستحيل أداء القرآن الكريم على الوجه الصحيح، كما نطق به النبي عليه السلام، والصحابة الكرام –رضي الله عنهم– وأصحاب الروايات دون تنغيم، لأن المعاني لا تستقيم إلا به، ومن (الأمور التي لم يعرفها دارسو الأصوات العربية من المحدثين أن علماء التجويد أدركوا ظاهرة التنغيم وعرفوا أمثلتها، واستخدم بعضهم كلمة النغمة، بينما اكتفى آخرون باستخدام عبارة (رفع الصوت وخفضه) وهو معنى التنغيم عند المحدثين.)[26] ولم يزد البعض شيئا عن هذا في تعريفه للتنغيم، سوى اختلاف في التسميات، التي ترجمت عن إحدى اللغتين الفرنسية أو الإنجليزية غالبا، من مصطلح (intonation). والمعلوم أن علماء التجويد عرفوا الوظائف التي يؤديها التنغيم في تلاوة القرآن

الكريم، وإن لم يسموه بهذا الاسم، فاهتموا بالظواهر التشكيلية وقتلوا بعضها درسا وتفصيلا، ووضعوا (قواعد عدة بهدف الوصول إلى التجويد السليم للنص القرآني، وقد استخدم علماء التجويد مصطلحات كثيرة دالة على ذلك، وهي ذات صلة بالتنغيم ودرسه، من حيث دقة تلك المصطلحات في التعبير عن كيفية الأداء والنطق، وهي تصب فيما يسميه علماء الأصوات اليوم ب (علم وظائف الأصوات) phonologie، والذي يعنى بالصوت في إطار السياق اللغوي)[27] وكثير من مصطلحاتهم له صلة وثيقة بالمصطلحات الخاصة بالتنغيم عند الباحثين المحدثين، مثل التجسيم (التغليظ والتفخيم والتحسين) والتجويد، والترتيل، والتطريب، والتفخيم (المختص بالراء)، ومدّي التعظيم والتبرئة، والوقف بأنواعه[28] واللحن والتحبير، والتزيين، وأساليب القراءة وغير ذلك من المصطلحات التي تحمل في طياتها نمطا من أنماط التنغيم في الدرس الحديث، أو وسيلة من وسائله، وأولها اللحن الخفيّ.

1- اللحن الخفي:

يرى الباحث اللغوي "غانم قدوري الحمد" حديث علماء التجويد عن ظاهرة "اللحن" وأقسامه يعزز الرأي المرجح لإدراكهم التنغيم، ومن أقدم نصوص علم التجويد التي عالجته ما ورد عند "أبي العلاء العطار" في قوله: "وأما اللحن الخفي فهو الذي لا يقف على حقيقته إلا نحارير القراء ومشاهير العلماء، وهو على ضربين: أحدهما لا تعرف كيفيته ولا تدرك حقيقته إلا بالمشافهة وبالأخذ من أفواه أولي الضبط والدراية، وذلك نحو مقادير المدّات، وحدود الممالات والملطّفات والمشبّعات والمختلسات، والفرق بين النفي والإثبات، والخبر والاستفهام، والإظهار والإدغام، والحذف والإتمام، والروم والإشمام، إلى ما سوى ذلك من الأسرار التي لا تتقيد بالخط، واللطائف التي لا تؤخذ إلا من أهل الإتقان والضبط"[29]. ويبدو جليا من نص "العطار" أن النوع الأول من أنواع "اللحن الخفي" يتعلق بطريقة النطق، والأداء المصاحب له، ويمثل لذلك بمقادير المدود، وبعض

الحدود، والتفريق بين المثبتات والمنفيات، والخبريات والاستفهاميات... ولا يعني هذا إلا التنغيم بمفهومه المحدث، وهل يحق لنا أن نجحد كل الجهود العلمية المتميزة بسبب اختلافنا مع أصحابها في التسمية؟

كما يستوقفنا الشرط الذي اشترطه "العطار" لمعرفة حقيقة "اللحن الخفي"، وهو "الأخذ من أفواه أولي الضبط والرواية" أو ما عرف بالمشافهة، في إشارة واضحة منه إلى تعلق هذا النوع من "اللحن الخفي" (التنغيم) بالحدث الكلامي المنطوق، دون الخطي الذي يتقيّد بالتدوين، وهذا معروف عند علماء الأصوات المحدثين، بل هو أمر متفق عليه سلفا. ولعل أوضح من المصطلح في الدلالة على التنغيم حديث علماء التجويد عن النغمة.

2– النغمة:

تعتبر النغمة من المصطلحات المعبرة التي اعتمدها علماء التجويد، وذلك من أجل الإشارة إلى الأداء، ولعلّ "النّسفي" هو أول من أوردها في مؤلفه "مدارك التنزيل وحقائق التأويل" في سياق حديثه عن السّكت غير الجائز بين القول والمقول، في قوله تعالى: "قال الله على ما نقول وكيل"[30] وعلّق على كلامه المرعشي موظفا بدوره لفظ النغمة في مؤلفه "جهد المقل" قائلا: "قال صاحب المدارك في قوله تعالى: "قال الله على ما نقول وكيل" –يوسف:11– بعضهم يسكت على (قال) لأن المعنى: قال يعقوب، غير أن السكت يفصل بين القول المقول. وهذا لا يجوز، فالأولى أن يفرق بينهما بالصوت، فيقصر بقوة النغمة اسم الله تعالى، انتهى. أقول (المرعشي) قوله: (فيقصر) معناه: يمنع اسم الله تعالى عن أن يكون فاعلا لقال بقوة النغمة، فيعلم أنه ليس بفاعل لقال"[31] وإذا رفع القارئ الصوت على لفظ الجلالة (الله) في هذه الآية يفهم أنه وما بعده جملة مقول القول (المبتدأ الله، وخبره وكيل) مفعول به للفعل "قال" ويعود فاعله على يعقوب عليه السلام، ولا يُتوهَّم أن القائل هو الله جل في علاه. وفي هذا المجال المصطلحي يشير الباحث "غانم قدوري الحمد" إلى

أن لفظ النغمة ورد مجموعًا عند الدّركزلي أثناء حديثه عن وجوه القراءة، وأساليب الأداء في قوله: "قال بعض المحققين ينبغي أن يقرأ القرآن على سبع نغمات: فما جاء من أسمائه تعالى وصفاته فبالتعظيم والتوقير، وما جاء من المفتريات عليه فبالإخفاء والترقيق، وما جاء في ردّها فبالإعلان و التفخيم، وما جاء من ذكر الجنة فبالشوق والطرب، وما جاء من ذكر النار والعذاب فبالخوف والرهب، وما جاء من ذكر الأوامر فبالطاعة والرغبة، وما جاء من ذكر المناهي فبالإبانة والرهبة."[32] وهذه الوجوه السبعة التي ذكرها الدّركزليّ، لا شكّ أنّها تتحقق بتنويع النغمات فلا نغمة الوعد كنغمة الوعيد، ولا نغمة ذكر الجنة كنغمة ذكر الجحيم...

ووردت هذا المصطلح أيضا عند القرطبي (ت 462هـ) في قوله: "في عرف علماء التجويد هو ترك القارئ عادته وطباعه في الدرس؛ إذا تلا فيلين الصوت، ويخفض النغمة؛ كأنّه ذو خشوع وخضوع، ويجري ذلك مجرى الرّياء، لا يؤخذ به ولا يقرأ على الشيوخ إلاّ بغيره."[33] فالخشوع والخضوع يستوجبان خفض النّغمة حسب ما يفهم من كلام "القرطبي"، لكن ذلك مهني عنه خوفا من الرّياء، واحتراما للشيوخ أثناء المدارسة. وقد عبّر بعض علماء التجويد عن النّغمات بما سمّوه ب"وجوه المخاطبات والخطاب في القرآن الكريم"، حيث لم يغفلوا في هذا الميدان الحديث عن الأساليب والأوجه التي يقرأ بها القرآن الكريم كما نطق به النبي عليه الصلاة والسلام، والصحابة الكرام عليهم الرضا والرضوان، وهي (لا تخرج عن إطار العادات النطقية السليمة التي تساهم في تعزيز المعنى وإفهامه دون مبالغة، ولا تخرج بالتالي، عن كونها تلوينات صوتية تدخل ضمن التنغيم السليم للنص القرآني)[34] حتى يستقيم الأداء، وتفهم المعاني المختلفة للآيات الكريمة، إذ ليس طبيعيا أن تقرأ كلّها بتنغيم واحد.

ومن أولئك المشايخ الأفذاذ "الزّركشي" في مؤلّفه "البرهان في علوم القرآن"، وذلك في سياق الحديث عن آداب التّلاوة وكيفيتها حيث يقول: "فحقٌّ على كل مسلم قرأ القرآن أن يرتّله، وكمال ترتيله تفخيم ألفاظه والإبانة عن حروفه، والإفصاح لجميعه بالتدبّر حتى يصل بكلّ ما بعده،

وأن يسكت بين النَّفَس والنّفس حتى يرجع إليه نَفَسه، و ألاّ يدغم حرفا في حرف... وقيل: أقلّ الترتيل أن يأتي بما يُبيّن ما قرأ به، وإن كان مستعجلا في قراءته، وأكمله أن يتوقف فيها، ما لم يخرجه إلى التمديد والتمطيط؛ فمن أراد أن يقرأ القرآن بكمال الترتيل فليقرأه على منازله، فإن كان يقرأ تهديدًا لفَظ به لفْظ المتهدّد، وإن كان يقرأ به لفْظ تعظيم لفَظَ به على التعظيم."[35] ولا يتحقق الكمال في الترتيل إلا بالشروط التي ذكرها المؤلف في هذا القول، كإبانة الحرف، وتفخيم اللفظ، والتدبّر والسكت، مع وجوب مراعاة معنى الآية الكريمة ليتناسب مع الأداء. وكل من قرأ هكذا فهو –حسب المؤلف– القارئ المجيد الذي (تكون تلاوته على معاني الكلام، وشهادة وصف المتكلّم، فالوعد بالتشويق والوعيد بالتخويف والإنذار بالتّشديد، فهذا القارئ أحسن الناس صوتا بالقرآن، وفي مثل هذا قال تعالى: "الذين آتيناهم الكتاب يتلونهم حق تلاوته أولئك يؤمنون به"[36]) [37] ويبدو أن القارئ المتميّز، التّاليَ للقرآن الكريم، عليه أن يربط صوته بمعاني ما يتلوه، ليستطيع أن يصنع الجو المناسبً للأغراض النفسية المراد تبليغها، وفي نهاية الأمر يتحقق كمال التلاوة، والترتيل (الدالّ بحقّ على أداء القرآن أداءً يحقق التطريز... ذلك أن فعل الترتيل لا يتحقق إلاّ بمراعاة أدائها، وبذلك فهو يقوم بوظيفة تأويليّة للظاهرة التطريزية.)[38] وهذا يدل على أن الكلام وما يحمل من معاني ودلالات لابد أن يرتبط بالتطريز وظواهره، حتى تتضح مقاصده. وبعد التحقيق الذي قام به الباحث "أحمد البايبي" والمتعلق بكلام "ابن الجزري" حول الترتيل وعرضه لتفسير اللفظ في قوله عزّ وجلّ: "ورتّلناه ترتيلا"[39]، وقوله تعالى: "ورتّل القرآن ترتيلا"[40] اتّضح له بأنه (فن الإلقاء القرآني، فن النطق بالكلام القرآني نطقا يجوّد ألفاظه، ويحقق تطريزه. وبهذا يكون الترتيل بمثابة الترجمة الشفاهية للظاهرة التطريزية بعامّة"[41] وإن أقرّ فيما بعد أنه لا يجب اختزال الملمح التطريزي في الوظيفة الأدائية فقط.

3- رفع الصوت وخفضه:

كل ما ذكره بعض علماء التجويد بدا للباحث "غانم قدوري الحمد" عاما وموجزا، عكس ما وجده عند (محمد بن محمود بن محمد السمرقندي الأصل الهمذاني المولد، البغدادي الدار، المتوفي سنة 780هـ الذي فصل هذا الموضوع تفصيلا لم يسبق إليه،... كما أن أحدا من الذين جاؤوا بعده لم يبلغوا مبلغه)[42] ولا يرى أنه يبالغ إن قال (إن كلام المحدثين في الموضوع لا يصل إليه من حيث القيمة العملية لا التفصيلات النظرية، فيما نجده مكتوبا عن الموضوع بالعربية)[43] أي بالتركيز على الجانب التطبيقي الإجرائي، أو الجانب العملي، وليس النظري فقط. ثم يستعرض بعض الأبيات من قصيدة السمرقندي الموسومة ب"العقد الفريد " التي يقول فيها:

إذا (مـا) لنفـي أو لجحـد فصـوتها أر فعــن ولاســتفهام مكّــنن وعــدّلا

وفـي غيـرٍ اخفـض صـوتها والـذي بمـا شـــبيه بمعنـــاه فـــقِسه لتفضـــلا

كهمـزة الاسـتفهام مـعْ مـن وأنْ وإنْ وأفعَــل تفضــيل وكيــف وهــل ولا

قال في الشرح: "مثال ذلك: (ما قلت)، وبرفع الصوت ب(ما) يعلم أنها نافية، وإذا خفض الصوت يعلم أنها خبرية، وإذا جعلها بين بين يعلم أنها استفهامية، وهذه العادة جارية في جميع الكلام وفي جميع الألسن"[44] حيث يرى الباحث أن هذه الأبيات من النظم ليست مجرد إشارة بسيطة عابرة إلى التنغيم (رفع الصوت وخفضه)، بل ترتقي إلى مستوى الوعي والإدراك، واستيعاب الوظيفة التركيبية النحوية له، خاصة بالتمثيل لها من التراكيب والأساليب النحوية العربية. وهذا الكلام (غاية في الوضوح والدقة، وهو يتميز بنظرة شمولية نادرة، تتجاوز المثال الجزئي الواحد إلى عموم اللغة، وتتجاوز اللغة الواحدة إلى غيرها من اللغات.)[45] ولا ينفي أحد من اللغويين في العصر الحديث ظاهرة التنغيم عن أية لغة من اللغات في العالم. وبالعودة إلى ما يمكن استخلاصه من كلام "السمرقندي"، وبناء على رفع الصوت ب(ما) يُفهم من العربية القديمة أنها للنفي أو الجحود (وهو نوع منه)، وإذا خفضنا بها الصوت صارت خبرية، وإن كان مستوى نطقها معتدلا بين هذا وذاك

فهي استفهامية. كما طبق "السمرقندي" هذه الفكرة القائمة على تمييز المعاني بناء على (رفع الصوت وخفضه على عدة صور نطقية متماثلة في البنية ولا يفرق بينها إلا طريقة التنغيم. من ذلك صيغة (أفعل) التي تكون للتفضيل، فقد قال: "فينبغي أن يفرق بالصوت بين الذي بمعنى التفضيل، والذي ليس بمعنى التفضيل." وكذلك الفرق بين (لا) النافية و (لا) الناهية وكذلك اللام التي لتوطيد الفعل وبعدها همزة وصل مثل (لاتّبعهم)[46] تلتبس بـ"لا" النافية، التي بعدها همزة وصل في لفظها نحو: (لا انفصام)[47] يكتب بألفين، وفي نحو (لاتّبعتم) يكتب بألف واحدة، ويرفع الصوت على (لا)، ويخفض على اللام... فهذا ما وصل إلينا من الأئمة رواية ودراية ومشافهة وبيانا.)[48] وهذا القول للعالم الفذّ "السمرقندي" يدلّ على وعيه بظاهرة التنغيم، وإدراكه لوظيفتها النحوية من خلال رفع الصوت وخفضه في مواضع لا تتقيّد بالكتابة، للتفريق بين صيغة (أفعل) التي تفيد التفضيل، والتي لغيره، وبين لا النافية ولام توكيد المضارع المتبوعة بهمزة وصل، وبين (لا) الناهية والنافية. ويشير في نهاية قوله إلى الرواية عن الأئمة أهل الاختصاص، وأهل الدراية والبيان، عن طريق المشافهة، لأن ذلك أكمل للأداء، والأفضل لاستقامة وجوه القراءة، وهو أبعد عن اللحن بكل أنواعه، وأيسر في الحفظ الفهم... وفيه أيضا إشارة جلية إلى أن ظاهرة التنغيم تتعلق بالمرويّ شفاهة، أو المتواتر المنقول (أي الكلام المنطوق)، لا المكتوب (المقيد بالخط).

4-المدّ:

يعتبر المدّ من عناصر التنغيم، وأحد وسائله عند كل اللغويين المحدثين، وقد كان اللغويون القدامى على وعي تامّ بهذا المظهر الوظيفي الفونولوجي، بل قد قتلوه بحثا ودراسة، وجعلوا له حروفا

ثلاثة، هي الألف المفتوح ما قبلها، والواو الساكنة المضموم ما قبلها، والياء الساكنة المكسور ما قبلها، و(تتعرّض حروف المدّ للتقصير حتى تصير حركة، وتتعرض للتطويل حتى تصير ضعف طولها الأصلي أو أكثر. ولكل حالة من ذلك موضع معيّن في التركيب)[49] وهذا معروف عند العلماء اللغويين المحدثين.[50] كما (كانت عناية علماء التجويد بظاهرة التطويل (أي المدّ) أكثر من عنايتهم بظاهرة التقصير، وذلك لتنوع أسباب المدّ، وتعدّد درجاته، واختلاف القرّاء فيه، أما تقصير حروف المدّ فله موضع واحد، ولا اختلاف فيه بين القرّاء، ومن ثمّ فقد أغفل كثير من العلماء ذكره، استغناءً بشهرته عن تكلّف الكلام عنه)[51] ولا شك أن هذا التنوع في المدّ (الطويل) جعله يحظى (بعناية كبيرة من علماء التجويد المتقدّمين والمتأخرين على السواء، فوضّحوا وعلّلوا، وبالغوا في التقسيم. وقدّ وضّح المرادي* خطة لدراسة الموضوع فقال: "والكلام على ذلك يتّضح ببيان ستة أشياء هي: المدّ، وحروفه، وعلّة اختصاصها به، والأصل منها، وأمكنها فيه، وسببه"[52])[53] ويدل تفصيل "المرادي" (خطته) على وعي القدماء بهذه الظاهرة الصواتية، التي ربطها الباحث "هايل محمد الطالب" بما يسمّى حديثا "تنغيم الجملة"؛ إذ يستشهد بنص يعدّ من أقدم النصوص التجويدية في التراث، والذي يعود إلى "أبي حاتم الرازي" (ت322هـ) فيما أسماه ب"كتاب الزينة"، الذي يحلّل فيه كلمة "آمين" قائلا: "قال قوم من أهل اللغة هو مقصور، وإنما أدخلوا فيه المدّة بدلا من ياء النداء كأنهم أرادوا (يامين)... فأما الذين قالوا مطوّلة فكأنه معنى النداء يا أمين على مخرج من يقول: يا فلان، يا رجل، ثم يحذفون الياء: أفلان، أزيد. وقد قالوا: في الدّعاء: أربّ، يريدون: يا ربّ، وحكى بعضهم عن فصحاء العرب: أخبيث، يريدون: يا خبيث. وقال آخرون: إنما مدّت الألف ليطول بها الصوت كما قالوا: (أوه) مقصورة الألف ثم قالوا: (آوه) يريدون تطويل الصوت بالشكاية."[54] ويظهر جليا من خلال هذا القول أن "أبا حاتم الرازي" يشير في آخره إلى علاقة المدّ وتطويل الصوت بالمعاني المراد تبليغها (وهذا أمر لا يمكن إدراكه إلا بالكلام المنطوق ويقصّر الكلام

عن نقله، وهذا ينقلنا إلى الحديث عن أهمية المشافهة في نقل التنغيم.)[55] وعلاقته بالأحداث الكلامية غير الخطيّة معروفة، قد أقرّ بها اللغويون المحدثون أيضا.

والمستنتج مما سبق ذكره من أقوال وشروح، أن علماء التجويد كانوا على دراية بظاهرة التنغيم الوظيفية، وجلّ عناصرها، وجعلوا ذلك من كمال التلاوة، وهي (سنة الله تبارك وتعالى فيمن يقرأ القرآن مجوّدا مصححًا كما أنزل تلتذّ الأسماء بتلاوته، وتخشع القلوب عند قراءته، حتى يكاد أن يسلب العقول ويأخذ بالألباب؛ سرّ من أسرار الله تعالى يودعه من يشاء من خلقه.)[56] ولا يتحقق ذلك لأحد إلا بأداء مناسب للتلاوة، بعيد عن اللحن الخفيّ أو الظاهر، وبرفع الصوت في المواضع التي تستوجب ذلك، أو خفضه حين يتطلب الأمر السكينة والهدوء، أو الاعتدال بين هذا وذاك لتحقيق الغرض المناسب.

الهوامش:

[1]– الفيروزابادي، القاموس المحيط، ط 8، مؤسسة الرسالة، 2009، ص 1321.

[2]– إسماعيل بن حماد الجوهري، الصحاح في اللغة والعلوم تقديم الشيخ عبد الله العلالي، إعداد وتصنيف: نديم مرعشلي، وأسامة مرعشلي، د/ط، بيروت، دار الحضارة العربية، د/ت، ج2 ، ص 132.

[3]– ابن منظور، لسان العرب، بيروت لبنان، دار الكتب العلمية، المجلد السابع، ص 541.

[4]– الخليل بن أحمد الفراهدي، العين، ترتيب و تحقيق عبد الحميد هنداوي، بيروت لبنان، منشورات محمد علي بيضون دار الكتب العلمية، ج 4، ص 247.

[5]– أحمد بن فارس، مقاييس اللغة، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، دار الفكر، بيروت لبنان، د/ ت، د/ط،ج2، ص 452.

* ورد في الطبعة لفظ (الصبغة) بدل لفظ (الصيغة).

[6]– مكي درار، ملامح الدلالة الصوتية في المستويات اللسانية، طبعة خاصة، دار أم الكتاب للنشر والتوزيع، مستغانم الجزائر، 1433هـ/ 2012م، ص179.

[7]– بسناسي سعاد، التنغيم صوت ودلالة، مجلة القلم، جامعة وهران السانيا، العدد 3، 2006م، ص 37.

[8]– إبراهيم أنيس، الأصوات اللغوية، مكتبة الأنجلو المصرية، 1975م، ص 175.

[9]–كمال بشر، فن الكلام، د/ط، القاهرة، دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع، 2002م، ص 262.

[10]–كمال بشر، فن الكلام، (المرجع السابق) ص 262.

[11]– محمود السعران، علم اللغة مقدمة للقارئ العربي، د ط، بيروت لبنان، دار النهضة العربية لطباعة والنشر، د ت، ص 198.

[12]– عبد العزيز الصيغ، المصطلح الصوتي في الدراسات العربية، ط2، دمشق سورية، دار الفكر، 1427هـ/2007 م، ص 263.

[13]– تمام حسان، مناهج البحث في اللغة، القاهرة، د ط، مكتبة الأنجلو المصرية، 1990، ص175.

[14]–تمام حسان، البيان في روائع القرآن، عالم الكتب، القاهرة مصر، د/ط، 1412هـ/ 1993م، ص 263.

[15]– محمد التونجي، المعجم المفصّل في علم اللغة. الألسنيات، د/ط، بيروت لبنان، دار الكتب العلمية، 1993، ج1، مادة نغم. ص321.

[16]–فهمي حجازي، مدخل إلى علم اللغة، د/ط، القاهرة مصر، دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع، د/ت، ص 82.

[17] –مكي درار، ملامح الدلالة الصوتية في المستويات اللسانية، ص180.

[18] –حمدان رضوان أبو عاصي، الأداءات المصاحبة للكلام و أثرها في المعنى ، مجلة الجامعة الإسلامية (سلسلة الدراسات الإنسانية) المجلد 17، العدد 02، جويلية 2009م، ص 67.

[19] المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

[20]– مكي درار، ملامح الدلالة الصوتية في المستويات اللسانية، ص 182.

[21]– المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

[22]– المرجع نفسه، ص183.

[23]– مكي درار، ملامح الدلالة الصوتية، ص183.

[24]–غانم قدوري الحمد، الدراسات الصوتية عند علماء التجويد، ط2، عمان، الأردن، دار عمان للنشر والتوزيع 1428هـ–2007م، ص21.

[25]– المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

[26] –المرجع نفسه، ص478.

[27] –هايل محمد الطالب، ظاهرة التنغيم في التراث العربي، مجلة التراث العربي، العدد 91، رجب 1424هـ سبتمبر 2003، السنة الثالثة والعشرون، ص 89.

[28] –المرجع نفسه ، ص 89–90.

[29]– أبو العطار، التمهيد في التجويد، مخطوط، نقلا عن غانم قدوري الحمد، الدراسات الصوتية عند علماء التجويد، ص478.

[30]– سورة يوسف الآية 66 وتمامها: "قال لن أرسله معكم حتى تؤتونِ موثقا من الله لتأتنّني به إلا أن يحاط بكم فلما آتوه موثقهم قال الله على ما نقول وكيل."

[31]– المرعشي ، جهد المقل، دراسة وتحقيق قدوري الحمد، ط2، عمّان، دار عمار، 1429هـ–2008م، ص285.

[32]– الدركزلي، خلاصة العجالة في بيان مراد الرسالة. نقلا عن: غانم قدوري الحمد، الدراسات الصوتية عند علماء التجويد، ص480.

[33]– عبد الوهاب القرطبي، الموضع في التجويد، تحقيق غانم قدوري الحمد، ط1، الكويت، معهد المخطوطات العربية، 1990م، ص 213.

[34]– هايل محمد الطالب، ظاهرة التنغيم في التراث العربي، ص83.

* سماها البعض أساليب القراءة والبعض مراتب القراءة والبعض الآخر وجوه إحياء القراءة. ينظر : غانم قدوري الحمد ، الدراسات الصوتية عند علماء التجويد ، ص 467 .

[35]– محمد الزركشي ، البرهان في علوم القرآن تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، ط1 ، دار إحياء الكتب العربية ، 1957 ، ج1 ، ص450 .

[36]– سورة البقرة، الآية 121.

[37]– هايل محمد الطالب ، ظاهرة التنغيم في التراث العربي ، ص 84 .

[38] –أحمد البايبي ، القضايا التطريزية في القراءات القرآنية ج1 ، ص 185 .

[39] الفرقان 32 وتمام الآية:" وقال الذين كفروا لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة كذلك لنثبت به فؤادك ورتلناه ترتيلا ".

[40]– المزمل 04 ، وتمام الآية :"أو زد عليه ورتل القرآن ترتيلا ".

[41]– أحمد البايبي، القضايا التطريزية في القراءات القرآنية ج1 ،ص 186 .

[42]– غانم قدوري الحمد، الدراسات الصوتية عند علماء التجويد، ص478.

[43]– المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

[44]– المرجع نفسه، الصفحة 478–479 عن: روح المريد في الشرح العقد الفريد في نظم التجويد السمرقندي، مخطوط.

[45]– المرجع نفسه، الصفحة 479.

[46]– النساء، 83.

[47]– البقرة، 256.

[48]– السمرقندي، روح المريد في شرح الفريد في نظم التجويد، مخطوط، نقلا عن: غانم قدوري الحمد، الدراسات الصوتية عند علماء التجويد، ص 479.

[49] –غانم قدوري الحمد، الدراسات الصوتية عند علماء التجويد، ص438.

[50] –ينظر: مكي درار، المجمل في المباحث الصوتية من الآثار العربية، ص 132 وما بعدها. وبسناسي سعاد، التحولات الصوتية والدلالية في المباني الإفرادية، ص173 وما بعدها.

[51]– غانم قدوري الحمد، الدراسات الصوتية عند علماء التجويد، ص 438.

[52]– أبو حمد الحسن بن قاسم بن عبد الله بدر الدين المرادي توفي سنة 749هـ.

[53]– غانم قدوري الحمد ، الدراسات الصوتية عند علماء التجويد ، ص 43.

[54] أبو حاتم الرازي ،كتاب الزينة ، تحقيق : حسين بن فيض الله الهمداني ، القاهرة، مطبعة الرسالة ، 1958 ج2 ، ص 28 .

[55]– هايل محمد الطالب، ظاهرة التنغيم في التراث العربي، ص83.

[56]– ابن الجزري، النشر في القراءات العشر تصحيح ومراجعة علي محمد الضباع، بيروت لبنان، دار الكتب العلمية، د/ ط، د/ ت، ج1، ص212.

قائمة المراجع:

القرآن الكريم.

1) إبراهيم أنيس، الأصوات اللغوية، مكتبة الأنجلو المصرية، 1975م.

2) أحمد بن فارس، مقاييس اللغة، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، د/ط، بيروت لبنان، دار الفكر، د/ ت.

3) إسماعيل بن حماد الجوهري، الصحاح في اللغة والعلوم تقديم الشيخ عبد الله العلالي، إعداد وتصنيف: نديم مرعشلي، وأسامة مرعشلي، د/ط، بيروت، دار الحضارة العربية، د/ت.

4) بسناسي سعاد، التنغيم صوت ودلالة، مجلة القلم، جامعة وهران السانيا، العدد 3، 2006م.

5) تمام حسان، البيان في روائع القرآن، د/ط، القاهرة مصر، عالم الكتب، 1412هـ/ 1993م.

6) تمام حسان، مناهج البحث في اللغة، د ط، القاهرة، مكتبة الأنجلو المصرية، 1990.

7) ابن الجزري، النشر في القراءات العشر تصحيح ومراجعة علي محمد الضباع، د/ ط، بيروت لبنان، دار الكتب العلمية، د/ ت.

8) حاتم الرازي ،كتاب الزينة، تحقيق : حسين بن فيض الله الهنداني ، القاهرة، مطبعة الرسالة ، 1958.

9) حمدان رضوان أبو عاصي، الأداءات المصاحبة للكلام و أثرها في المعنى ، مجلة الجامعة الإسلامية (سلسلة الدراسات الإنسانية) المجلد 17، العدد 02، جويلية 2009م.

10) الخليل بن أحمد الفراهدي، العين، ترتيب و تحقيق عبد الحميد هنداوي، بيروت لبنان، منشورات محمد علي بيضون دار الكتب العلمية.

11) الدركزلي، خلاصة العجالة في بيان مراد الرسالة.

12) السمرقندي، روح المريد في شرح الفريد في نظم التجويد، مخطوط.

13) عبد العزيز الصيغ، المصطلح الصوتي في الدراسات العربية، ط2، دمشق سورية، دار الفكر، 1427هـ/2007 م.

14) عبد الوهاب القرطبي، الموضع في التجويد، تحقيق غانم قدوري الحمد، ط1، الكويت، معهد المخطوطات العربية، 1990م.

15) أبو العطار، التمهيد في التجويد، مخطوط.

16) غانم قدوري الحمد، الدراسات الصوتية عند علماء التجويد، ط2، عمان، الأردن، دار عمان للنشر والتوزيع 1428هـ-2007م.

17) فهمي حجازي، مدخل إلى علم اللغة، د/ط، القاهرة مصر، دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع، د/ت.

18) الفيروزابادي، القاموس المحيط، ط 8، مؤسسة الرسالة، 2009.

19) كمال بشر، فن الكلام، د/ط، القاهرة، دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع، 2002م.

20) محمد التونجي، المعجم المفصّل في علم اللغة. الألسنيات، د/ط، بيروت لبنان، دار الكتب العلمية، 1993.

21) محمد الزركشي، البرهان في علوم القرآن تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، ط1 ، دار إحياء الكتب العربية ، 1957 .

22) محمود السعران، علم اللغة مقدمة للقارئ العربي، دط، بيروت لبنان، دار النهضة العربية لطباعة والنشر، د ت.

23) المرعشي، جهد المقل، دراسة وتحقيق قدوري الحمد، ط2، عمّان، دار عمار، 1429هـ-2008م.

24) مكي درار، ملامح الدلالة الصوتية في المستويات اللسانية، طبعة خاصة، مستغانم الجزائر، دار أم الكتاب للنشر والتوزيع، 1433هـ/ 2012م.

25) ابن منظور، لسان العرب، بيروت لبنان، دار الكتب العلمية، المجلد السابع.

26) هايل محمد الطالب، ظاهرة التنغيم في التراث العربي، مجلة التراث العربي، العدد 91، رجب 1424هـ سبتمبر 2003، السنة الثالثة والعشرون.